تجربة فنان

بقلم توفيق يوسف عواد

صدرت اخيرا للاديب اللبناني الكبير توفيق يوسف عواد ـ بعد انقطاع طويل ـ مسرحية بعنوان « السائح والترجمان » كانت قد نالت في العام الماضي احدى الجوائز الادبية الكبرى . ومن وحي هذا الكتاب الجديد ، كتب المؤلف هذا الحديث الرائع :

ربع قرن لزمت فيه السكوت لا بيني وبين الناس فقط بل بيني وبين نفسي ايضا . وكثيرا ما طرح علي الناس السؤال : لم سكت هذا الدهر الطويل ؟ وكثيرا ما طرحته على نفسي ، فلم اوفق الى جواب .

على اني ، قبيل سكوتي ـ وكنت اذ ذاك عاكفا على « الرغيف » وقد ظهر في ١٩٣٩ ـ تكلمت عن هذا السكوت بالذات ، وكأنني كنت اتوقعه واوجس خيفة منه . كان ذلك في مناسبة حفلة تذكارية اقيمت في زحلة صيف ١٩٤٨ للاديب المرحوم نجم ابو شرف حتي ، وكان يكتب في مجلة « المكشوف » لسان حال ادباء لبنان لذلك العهد ، فصولا غاية في الطرافة بامضاء « ساكت » ، اثارت حول هذا الاسم كثيرا من المحبة والاعجاب .

ولان يسكت الانسان اسمه فتلك لعمري غاية السكوت التي ليست بعدها غاية .

قلت في صاحب الذكرى من جملة ما قلت: «الاديب، الفنان اطلاقا ، انسان شقي . لقد منحه الله ان يرى ابعد مما يرى الناس ، وان يحس ما يدق عن حس الناس . يمرون هم على سطح الحياة ، ويغوص هو الى اغوارها يريد ان يضع اصابعه على كنوزها واسرارها . تلك مرحلة الرؤيا ، وسموها الوحي او الالهام انتم ، واللاوعي اذا شئتم ، ودعوني اسمها انا مرحلة السكوت امام ما يبهر عينيه ويضطرب به قلبه. واهناءه لو وقف عندها واستأثر بما تبذل . ولكنه ، لشقائه ، يريد ان يملأ خزائن بيته وان يوزع على الاخرين ، فيحاول ان يثبت الرؤيا ، ان يجسدها ، ان يجعلها مخلوقا سويا ، فيلجأ الى الالفاظ . والالفاظ ، مهما برعت ، منطقة محدودة ، ووداعه اشعة لا تقف عند حد ، ولطائف لا تمسك بيد . حينئذ تنتصب له جلجلة الفن ، تفتيشا وتبديلا ، تشذيبا وتطعيما ، ومضاربة ومباعدة وموازنة ، ثم هو يقابل بعد ذلك كله بين ما كان في نفسه وصار على طرسه، فيهوله الفرق . فنفائسه الغاليات حجارة ، وحقه السحري فخارة غرارة . ولكن الناس ، لحرمانهم ، يتهافتون على الحجارة يسدون بها جوعهم ، وعلى الفخارة يروون بها عطشهم شاكرين معجبين . فيتقبل منهم مزهوا بينه وبينهم . فاذا خلا الى نفسه صاح : واشقائي بما اعطيت الى جانب ما املك ، ليتني بقيت ساكتا ! »

وفي هذا المجال ، سئل عمر ابو ريشة : ايها في نظرك ، اجمل قصائدك ؟ فلخص كل ذلك بقوله : تلك التي لم يقتلها الحرف بعد ! »

عودا الى ما قلته لخمس وعشرين سنة او يزيد اتساءل: هل انا ايضا ذلك الساكت طول هذه المدة ؟ وهل كانت تلك حقا هي الاسباب التي ختمت على فمي ؟ قد لا يكون الامر ذا بال لولا علاقته الحميمة ـ خارج الاعتبار الشخصي بالادب من حيث هو ، بالفن اطلاقا .

الجلجلة ! ... ذلك هو وجه المأساة في الامر . يعانيها من يعرفها ، من يصل اليها تحت وقع السياط ، فهو من المعذبين في الارض . وهنيئا للجاهلين القاعدين ! اما اولئك فهم الذين يملكون ، فضلا عن الموهبة ، ذوقا سليما ومقاييس صارمة يطبقونها على انفسهم . الناقد يتغلب فيهم اخر الامر على الاديب ويفترسه ...

على ان للامر وجها اخر ، غير وجه المأساة ، هو وجه اللعبة ، لعبة خطرة وجليلة . لعبة الفن . لقد طال ما قرأنا وسمعنا عن جدال المعنى والمبنى في الصنيع الادبي . عن ماهية هذا وذاك وعلاقة بعضهما ببعض . الاراء اكثر من ان تحصى في هذا الشأن او ان يحيط بها نطاق . حسبي شيء ـ وفي هذا بعض الضوء على ما قلته في « ساكت » ربما كشف في هذا العالم السحري عن جوانب جديدة ـ ليس من معنى دون مبنى . ليس المبنى قالبا لجسم غريب ، ولا كأسا لسائل اجنبي . وانما هما شيئان متحدان . اقنومان لشخص واحد . روح وجسد يؤلفان كائنا حيا . لا يمكن فصل الروح عن الجسد او فصل المعنى عن المبنى الا بموت الكائن الحي او عدمه اصلا . لذلك كان استعمال هذه الكلمة مثلا بدلا من تلك انتقالا من فكر الى فكر او من شعور الى شعور ، او من خيال الى اخر ، عظم او لطف . لا فرق . جمل او قبح ...

***

الانسان حيوان ناطق . وبمقدار بلاغته في النطق يكون سموه عن الحيوان غير الناطق ، وبالتالي عن غيره من الحيوانات الناطقة ، اي مدى ما وصل اليه من فكر

وشعور وخيال . وعلى هذا كانت اللغة ، بحد ذاتهـــا ، ترجمانا عن ثقافة وصورة لحضارة . واللغة العربيـــة لا تشذ عن القاعدة وانما هي مثال رائع عليها . كل كلمـة من كلماتها تاريخ مكتوب وغير مكتوب ، مشحون بالانفاس التي ترددت خلال حروفها ، زاخر باسرار الزمان والمكان اللذين تنقلت فيهما ، مضطرب بملايين الانغام والالوان... من ملك لغته ملك فكره وشعوره وخياله ، وملك، او كان على متناوله ، ثقافة بامها وابيها ، وحضارة . ومن فاتتـه عبقرية لغته فاتته عبقريته وعبقرية امته ، فصنيعـــه الادبي طرح .

اجل في البدء كانت الكلمة . بامكاننا ان نقول : في البدء كانت الكلمات او الالفاظ . وحالة الوحي والالهام ، او اللاوعي والرؤيا ، يمكن ان تشبه ــ على فرق الحجم ــ بالحالة التي سبقت الخليقة . و « كانت روح الله تـرف على وجه الغمر » . هكذا جاء في سفر التكوين . وبالتصدي للالفاظ او الكلمات ، لتلك الكائنات الحية والفلذ النابضة المبعثرة ، تبدأ اللعبة . لعبة التكوين ، او الخلق روحـا وجسدا . انها لعبة رائعة .

مع هذا الفرق الاخر ، وهو كبير ، ان الفنان لا يستطيع ان يقول للشيء : كن فيكون ، ثم يستريح . ولكنه مضطر الى دأب وصبر ومعاناة . خالق هو ، صحيح ، ولكنـــه خالق حقير ، قرد مقلد .

اما ان اللعبة خطرة فلانها ملأى بالمفاجآت . فـــرب كلمة نبحث عنها للتعبير عن شيء فاذا هي تحمل الينـا شيئا اخر . تفتح صدرها عن مخبآت ، او تنادي اختـا لها قريبة او بعيدة ، فيكون لنا في النتيجة ما لم يخطر في البداية لنا ببال . تداعي الكلمات كتداعي الافكار ، او هو هو بالذات ، وهذا ما يسمونه وحي القلم .

ولكن اللعبة تظل اعطاء ما عندنا لا استعارة ما عنـــد الغير . ومعجزة الكاتب الكاتب او الشاعر الشاعر ان الكلمة تحت قلمه ــ على تقادمها وتكرارها تعود بكرا تفـــوح بالطهر ، لانها تمر من خلاله ، تتغذى من دمه ، تنضـج على شموسه واهوائه ، ينفخ بها من روحه . وويـــل لصاحب قلم تنقلب الكلمة بين يديه الى مومس او حطبة. انه شقاء الخلق بالخالق ! بعد شقاء الخالق بخلقه .

***

الى جانب التراث اللغوي البحت المتحدر الينا عبر الاجيال ، تراث اخر : الاوزان والقوافي . ابادر الى القول

قصيدة الحب

كل يوم ادخل بها مخدع حبي
اقول لها :
من المهاوي السحيقة اتيت اليك
من جوف الظلمات العمياء
والكهوف الملأى بالبرد والفزع
احمل غربتي
وها انا في احضانك القيها

دعيها
تعانق غربتك الشقيقة
ايتها الحبيبة !
ايتها الغريبة !

نادي ابعاضي الموزعة في كل افق
الى موعد لقاء ،
على عريك

اضطجعي تتكسر كبرياء الشمس عليك
تنسكب لانهاية الشمس في عينيك
تستو هيبة الليل في فوديك
ينعقد الهلال بين رأسك واخمصيك

او انهدي تنسحق روعة الذرى على نهديك
او موجي يتدفق البحر في عطفيك
او ارقصي ترقص العطور
وتطلع الزهور
تحت قدميك !
و « احب » قولي يغرد العصفور
على شفتيك

او اطوي علي جناحيك
واطفئي السراج
احملك او تحمليني
عبر السرير
الوئير
في عاصف مجنون
يطوي بنا القفار
ويزرع الدمار
يجفّل الذئاب
في الغاب
ينكّس الصقور
صرعى على الصخور
يهدّم القباب
يجرّح السحاب
يشرّد النجوم
يمزق السدوم
لعل ما يهديني
الى قرار حنيني
بالثلج يغمر شكي
وبالشموس يقيني

من « السائح والترجمان »

انني لست من المحافظين عليها كما قعد قواعدها الخليل. ولست من انصار الشعر المنثور او قصيدة النثر .

وضع موليير على لسان شخص في احدى مسرحياته هذه العبارة : « اصحيح انني اصنع نثرا دون ان ادري ».

الواقع ان كلا منا يصنع النثر ويصنع الشعر ايضا دون ان يدري . ينطق نثرا في مواضع النثر ، وشعرا في مواضع الشعر . عفوا ، بلا قصد . يخضع في الامرين للموقف الذي هو فيه او الحالة . وواضح ان الحالات النثرية هي الغالبة — في الظاهر على الاقل — ولا تتأتى الحالات الشعرية الا بين الحين والحين . مثلها كمثل الانواء في البحر اذا اردنا التشبيه . الا ان للانسان ، كما للبحر ، حالة شعرية دائمة ولكنها خفية . وربما كان وراء النثر شعر لا ينقطع خيطه ولكنه خيط دقيق لا يتاح للجميع ان يروه فكيف بامساكه ؟

لغة الحب شعر . لغة الحنان والغفران شعر ، لغة الغضب والحقد شعر ، لغة التمزق واليأس شعر، الصلاة شعر والتجديف شعر ، اما الكلام عن المشي والقعود ، والزرع والضرع ، والبيع والشراء ، والعمل والمكتب فهو نثر ... اقول هذا لاقرر شيئا .. ان التعبير الطبيعي بالنطق لا يمكن ان يكون نثرا فقط او شعرا فقط . وانما هو مزيج من الاثنين .

من المتفق عليه في تاريخ الاداب ان الشعر سبق النثر . هذا خطأ . لم يسبق احدهما الاخر . توأمين ولدا . ولكن الشعر هو الذي بقي محفوظا وضاع النثر. ثم اننا نخلط بين النظم والشعر . النظر نثر موزون مقفى، والشعر شيء اخر . وعلينا ان نميز في الشعر القديم ، وفي الشعر الحديث ايضا ، خصوصا في عصور الانحطاط عند العرب ، بين الشعر الذي هو شعر والشعر الذي ليس له من الشعر الا الاوزان والقوافي .

حتى في الشعر الصحيح ، في القصيدة الواحدة منه ، طبقات يتدنى بعضها الى النظم اي الى النثر ... سؤال : لم لا تكون هذه الطبقات نثرا لا اكثر ولا اقل ، لا تعب ولا وجع رأس ؟

هذا السؤال طرحه سواي تمردا وتحطيما ، طرحه انقلابا . ووجد جوابه في الشعر المنثور او قصيدة النثر كما يقولون اليوم . فاستغنى بذلك عن الوزن والقافية ، ولكنه جهل انه يتنازل بذلك مجانا عن عنصر اساسي من عناصر الشعر ، الموسيقى ، وعن تراث لها في العربية يبلغ من الغنى ما لم يبلغه تراث في اي لغة من لغات الارض . اما الطريقة المحافظة ، الوزن الواحد والقافية الواحدة ففيها جمود لا يتفق مع تطور الشعر بصفته تعبيرا عن الحياة ، والحياة متطورة ابدا جوهرا ومظهرا، وبالتالي تعبيرا .

اعود الى القول ان طريقتي في « السائح والترجمان » غير الطريقتين . واوضح — وهذا مهم — انها طريقة لا واعية ، بمعنى انني لم ابحث عنها او اسع وراءها . لم ارسم لها مخططا . ليست عن سابق تصور وتصميم . كل ما كان انني كنت اعيش الحالة فتملي علي وانا اكتب. فاذا اقتضت نثرا فالنثر ، او شعرا ، فالشعر . السائح والترجمان نثر وشعر معا .

على ان الحالة نفسها — اية حالة — تنقسم بدورها الى حالات ، الى مراحل ، الى مراتب تختلف حرارة وبرودة، سرعة وبطأ . ومع هذه الانتقالات يتغير الوزن والقافية ، دائما في القصيدة نفسها ، ورب مقطع منها بلا وزن ولا قافية اطلاقا .

لنأخذ مثلا : قصيدة الحب في الكتاب . يبدأ الشاعر كما يبدأ المحبون في بث حبهم : تلعثما ، ووأواة ، وتقطعا ، وبحثا عما يريدون ان يقولوا وعن كيف يقولون ما يريدون . وعلى الجملة ارتباكا في النفس وبالتالي في التعبير . هذا الارتباك لا يجوز ان ينزل في قالب الوزن والقافية تلتزمهما القصيدة من اولها الى اخرها . فهو اذا نثر او بالاحرى شعر لا يربطه وزن ولا قافية .

مرحلة او مرتبة اولى .

تلي مرتبة ثانية تبدأ باغراء المحب وقد اطمأن الى اثر اغرائه ، الى صدى كلماته في الحبيبة . في هذه المرتبة يرتفع النفس ويتسع مداه ويأخذ بالايقاع .

فاذا بلغ الحب ذروته — الوصال — وهي المرتبة الثالثة لزمه الوزن والقافية اللذان تقتضيهما هذه المرتبة ، ضربا عنيفا اشبه بضرب الناقوس في العيد .

حتى اذا سكن كل شيء — مرتبة رابعة — ارتد التعبير الى ما يتفق مع الراحة المنداحة والطمأنينة الغامرة.

اكرر مؤكدا . لم ارد ذلك عمدا . لم اقل بيني وبين نفسي سانظم على الوزن الفلاني والقافية الفلانية، وسأنتقل هنا او هناك من وزن لوزن ومن قافية لاخرى .

وبعد ، ان الطلب من الكاتب ان يتكلم عن كتاب له كالطلب الى الاب او الام ان يتكلم احدهما عن ولده. فكيف اذا كان قد رزقه بعد حرمان سنين ؟

قال محمود تيمور ردا على بعض اسئلة القيت عليه في لبنان لدى زيارته الاخيرة .

«ليس للادب نوع ولا حدود . الادب عمل شخصي خالص» .

كلمة كبيرة من حجم هذا الاديب الكبير .

« السائح والترجمان » ؟ لقد تساءل النقاد امسرحية هو ، ام قصة ، ام ملحمة ؟ ام كل ذلك ؟ ام شيء اخر ؟ صدقوني ، لست ادري . وما همني ان ينوع بنوع او يحدد بحدود .

لقد انبثق مني كما ينبثق الينبوع . انفجر كما ينفجر البركان . كلاما بعد سكوت . نتيجة التأمل طول ذلك السكوت . لملمة ابعاض واشتات من نفسي ومن الكون . من نفسي الموزعة في الكون : من التراب والماء ، من الشمس والظلام ، من الطهر والعهر ، من الالم واللذة ، من سكين القاتل ودم القتيل ، من الحياة والموت ، والارض والسماء .

ترى ، هل عدت من تطوافي في تلك الاغوار السحرية بشيء ؟ ام كان كل ذلك عبثا وقبض الريح ؟ ..

توفيق يوسف عواد